براعة الكلمة وجمال التعبير في تشبيهات الحديث النبوي الشريف

د. فتوح محمود

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف

الجزائر

mahmoud.fettouh@gmail.com

الهاتف:0668587562

تاريخ الاستلام: 2018/02/29 تاريخ القبول: 2018/06/10

الملخص:

يتناول هذا البحث الإعجاز اللغوي والبلاغي في تشبيهات الحديث النبوي الشريف، من حيث الوقوف عند البراعة في اختيار الألفاظ المناسبة للتعبير عن البيان النبوي في مختلف الكتب التراثية ومستندات صحيح البخاري ومسلم، وشرح دلالاتها وتسجيل مدى أثرها في المتلقي، وتسجيل الإيقاع الاعجازي الذي خلفه نظمها في التراكيب والجمال في الأسلوب الذي ضرب في أعماق النفوس المؤمنة فآنسها، وطرب بموسيقاها الأسماع قبل وقوعها في القلب فأراحها.

وإن هذه المحاولة ستوضح مكانة الحديث النبوي في الدراسات اللغوية، وذلك بالوقوف عند التصوير البلاغي للتشبيه، وتبين مظاهره في مختلف المستويات اللغوية: البلاغة والنحو والصرف.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الجمال، التعبير، الحديث، التشبيه، النحو، الصوت.

Abstract:

المنارة للاستشارات

This research deals with the miraculous language and eloquence found in the analogies of the Prophet's Hadith, by standing in the most beautiful words chosen by the modern in the expression, found in various ancient books and the book of Sahih Bukhari and Muslim, and explaining its meaning and impact on the recipient by recording the miraculous rhythm that the words carry in the sentence And beauty in the method that affects the hearer and receiver.

This study will clarify the status of the Prophet's Hadith in linguistic studies, by standing at the eloquence of Simulations, and showing its manifestations in various linguistic levels: rhetoric, grammar and sound.

Keywords: rhetoric, beauty, expression, Hadith, Simulations, grammar, sound

مقدمة:

لقد منّ الله جل جلاله على أمته برسول منهم يتلوا عليهم بيانا ربانيا مشعا في الآفاق بلسان عربي مبين، فهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي عدّه خير البشر نسبا وأكرمهم حسبا، وأعلاه منزلة في اللغة والبيان، وهذه الميزة جعلته يتبوأ مكانا مميزا ويخصه بكتابه مبين، لأنه إرتضع أفاويق الفصاحة والبلاغة، وترعرع في لغة فصيحة، فزاده الله حكمة ووحيا بنزول القرآن عليه، ﴿**لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢**﴾(سورة فصلت، الآية 42.)، وقد قال الله تعالى واصفا نبيّه في منزلة الوحي:﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤**﴾(سورة النجم ، 3– 4) ، وصف الرافعي هذا الموقف الوصفي في عبارات توحي بالفهم المقتبس من شعائر النبوّة فيقول:«ألفاظ النبوّة يعمرها قلب متّصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه فهي إن لم تكن من الوحي لكنّها جاءت في سبيله وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت من دليله محكمة الفصول، حتّى ليس فيها عروة مفصولة

المنارة للاستشارات

محذوفة الفضول، حتّى ليس فيها كلمة مفضولة وكأنّما هي في اقتصارها وإفادتها نبض قلب يتكلّم، وإنّما هي في سموّها وإجادتها مظهر في خواطره صلى الله عليه وسلم »[1].

وقد أثبت لنا التاريخ مدى الروايات المتواترة والتي تبرز بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم ودرجة بلوغه من العلم منزلة، ومن البيان والبلاغة درجة الكمال والصفاء، فقد روي أن أبا بكر رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لقد طفت في العرب وسمعت فصحائهم، فما سمعت الذي هو أفصح منك؟ فقال عليه السلام:"أدبني ربي فأحسن تأديبي"[2]، وهذه هي أعلى مرتبة وأرقى مكانة في الكون من مبلغ درجة تعلم الكلمة من رب كريم.

وبالتالي فقد كانت للكلمة مكانا مميزا على لسانه الشريف في وضعها المكان المناسب، وهذا ما يدل على أنه بلغ من الفصاحة مبلغا مكرما، وحصل على قدرة البيان من رب جليل منان، فكانت جل"الألفاظ لذيذة السماع على مستقبلها، طيبة المجرى على اللسان، معتدلة في الوزن، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع، شديدة البعث لما تضمنته من المعاني المرادة"[3].

وبما أن الوظيفة الأساسية للبيان النّبوي الشريف هي الهداية والرشد والكشف عن حقائق الأشياء، فقد كان الذي هو أعون على ذلك وأقدر عليه من صور البيان في لسان العربية إنّما هو التشبيه والتمثيل، ولأجل هذا فإنّنا نلمس للتشبيه في كلامه صلى الله عليه وسلم حضورا قويّا، والتشبيه في بيانه لا يجمع دقائق الإبداع في لسان العرب فحسب، بل يجمع إلى ذلك كلّه أنّه الحقّ الذي لا يلتبسُ والهدى الذي لا يضلّ والرّحمة الّتي لا تنضبّ والعلم الذي لا ينفذ والصدق الذي لا يتخلّف ولا يتناقض[4].

المنارة للاستشارات

وفي هذا البحث سنخصص الحديث عن بلاغته النبوية الشريفة في جمال التشبيه وبراعة اختيار اللفظة المناسبة للتعبير عن البيان النبوي، وذلك انطلاقا من النصوص النثرية الشريفة المتناثرة في الكتب التراثية ومستندات صحيح البخاري ومسلم، ونقف عند دلالاتها بالشرح والتفصيل، ونبرز من خلالها جوامع بيان الكلم للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ومدى أثرها في المتلقي من حيث الإيقاع الاعجازي الذي تركه نظمه في براعة التركيب والتي ضربت في أعماق النفس المؤمنة وأطربت موسيقاها الأسماع قبل وقوعها في القلب، فكان إعجازها ظاهرا للعيان في كل المستويات اللغوية، من بلاغة ونحو وصرف...

ولذا فالحديث النبوي الشريف أصبح المنبع الثر المعين والمورد العذب الذي لا ينضب من المعاني والدلالات، والمصدر الثاني للأمة العربية والإسلامية بعد القرآن الكريم من حيث أهميته في اللغة والبيان، لأن بلاغته جاءت في معين فصيح وبرونق بهي يصر السامعين ويبهر المتذوقين، وقد استند عليه الدارسين العرب والغرب في أبحاثهم مستلهمين نصوصه في مختلف قضايا اللغة العربية من نحو وبلاغة ودلالة وصوت ومعجم.... وغيرها من المجالات اللغوية والأدبية، ومن هنا جاءت هذه المحالة لتقف عند بلاغة لسانه وبراعة اختيار ألفاظه، وكان التشبيه نموذجا لإعجازه اللغوي والبياني.

أولا: مقومات الحديث النبوي الشريف في الدرس اللغوي:

لقد تعددت المقومات التي جعلت من الحديث النبوي الشريف يتربع في الدرس اللغوي العربي على المكانة الخاصة بعد القرآن الكريم، نذكر منها:

1. **فصاحة النبي محمد صلى الله عليه وسلم:**

المنارة للاستشارات

لا يختلف اثنان في القول عن البلاغة والبيان التي منّها الله سبحانه على خاتم أنبيائه أحمد عليه الصلاة والسلام، وهذه البلاغة تجلت في أعلى مستوياتها تعبيرا عن فصاحته التي وصف نفسه الشريفة بها، بأنه:"أفصح العرب"[5]، نتيجة نهله من معين التأديب الرباني الذي وهبه الله له من بلاغة القرآن الكريم، استنادا إلى الحديث النبوي الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم:"أدبني ربي فأحسن تأديبي"[6]، ولذا فهو "أفصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا، وأعذبهم نطقا، وأسدهم لفظا، وأبينهم لهجة وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طريق الصواب"[7].

ففصاحته الجارية على اللسان مجرى الدهان وبلاغته الراقية رقي الإعجاز، كانت في الطبقة العليا من البيان، بحيث لا يدانيه كلام ولا يقاربه نظم بشري مهما كان، أو بلغ من براعة العلم منتهى الفصاحة بمكان عظيم من أرباب اللسان واعلم الخلق بمعاني الكلام، أليس هو القائل«بعثت بجوامع الكلم»[8]، وهو يقصد :"جميع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة"[9]، وقد شرح ابن الأثير (ت637هـ) هذا الكلام بقوله:"إنه أوتي الكلم الجوامع للمعاني، وهو ينقسم قسمين: الأول: ألفاظ تتضمن من المعنى مالا تتضمنه أخواتها، مما يجوز أن يستعمل مكانها... من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: يوم حنين: (الآن حمي الوطيس)، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا: (استعرت الحرب) لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه (حمى الوطيس)، والفرق بينهما هو التنّور، وهو موقد الوقود ومجتمع النار، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها، وهذا لا يوجد في قولنا: (استعرت الحرب) أو ما جرى مجراه...، الثاني: الإيجاز الذي يدل به بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة، أي أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها، وجل كلامه جار هذا المجرى"[10] البليغ، الذي لا يبلغه انس بعده.

المنارة للاستشارات

وبالتالي فكلامه الشريف هو الدواء الشافي للقلوب، والبيان النافع للنفوس، "فلم يسمع للناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا، ولا أسهم مخرجا، ولا أفصح عن معنى، ولا أبين عن فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم"[11]، وهو ما يوضحه يونس بن حبيب(ت182ه) بقوله:"ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"[12].

2. مكانة الحديث النبوي في الدراسات اللغوية:

اهتمت اللغة العربية اهتماما بالغا بالحديث النبوي الشريف، بحيث استعملته استعمالا علميا وعمليا في مختلف مناحي الحياة، باعتباره أنموذجا حقيقيا للنثر القديم[13]، الذي يمثل اللغة العربية تمثيلا صادقا، لما يتميز به من "فصاحة مبنى وبلاغة معنى وبراعة تركيب وجمال أسلوب وروعة تأثير"[14]، فهذا البيان نحت معناه في القلوب الغلفاء قبل العقول، وسطعت أشعته على العرب والغرب، فكان ولا يزال بمثابة جوهرة الكلام يتسلل في الأوعية البشرية ليسكن القلوب الراقية المتذوقة، وهذا ما تثبته العديد من الدراسات الاستشراقية، منها دراسة بلاشير التي يقول فيها:"إن الوثيقة التي نظم فيها الرسول بعد وصوله للمدينة أحوال المسلمين واليهود تعدّ وثيقة لغوية من الطراز الأول"[15]، ولا يزال صداها اليوم وإلى يوم الدين.

وإن بلاغة النص الحديثي لا يقف "عند حدود النظم البليغ والصور البديعية، ولكنها تتعدى إلى المعاني أيضا، لأن كل حديث من الأحاديث الصحيحة يشتمل على فوائد كثيرة ومعاني مركزة، ولا أدل على ذلك من أن علماء الفقه والدراية بالحديث استنبطوا أحكاما كثيرة من الحديث الواحد، بل صنفوا الكتب المفصلة في الحديث الواحد، لأن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم البليغة الجامعة لم تترك معنى من المعاني إلا وفصلت فيه القول وبينت فيه الحكم، فصفة البلاغة النصية في ما صح

المنارة للاستشارات

من كلام الرسول الكريم تصدق على تراكيب الجديدة وصور وهيئات بنائه، مثلما تصدق على معانيه وقضاياه وأحكامه، وتدخل هذه المعاني في ادعاه أهل البلاغة بالمعاني العقلية التي تقابل المعاني التخييلية"[16]، مثل ما جاء عن عبد القاهر الجرجاني[17] في دراساته حول إعجاز القرآن الكريم.

ثانيا: التصوير البلاغي للحديث النبوي الشريف:

تعدّ الصورة في المفهوم البلاغي هي الأداة المهمة في التعبير باللغة المحسوسة عن المعاني والخواطر والأحاسيس، ووسيلة التصوير ليست سردا تقريريا لحقائق أو بثا مباشرا للأفكار أو ترجمة حرفية للمعاني التي في النص الأدبي، ولكنها تمثيل لتلك الأفكار والحقائق في صور محسوسة يعاينها المتلقي ويدركها إدراكا حسيا[18].

وبما أن التصوير وسيلة من وسائل الدلالة البليغة، التي تتمكن في النفس ويكون لها أثر عميق في الإبلاغ والإثارة، فإن البيان النبوي الكريم اتخذ هذه الوسيلة الطبيعية الفطرية لمخاطبة النفس البشرية المؤمنة لإيصال الأمانة الربانية التي حمله الله سبحانه إياها، فكان وقعها بالغ الأهمية في أذواق السليقة العربية.

وبالرغم مما تعرض له من أذى كبير إلا أن هذا لم يمنعه من أداء رسالته الشريفة، بل جاهد في سبيل الكلمة الطيبة التي تعلمها من النظم الرباني البليغ، فصاغ كلامه الشريف في قالب محكم ومؤثر لدعوة الناس كافة إلى توحيد رب العزة، فكان هو القدوة والمثل الأعلى في إرساء القيم والأخلاق بقول بليغ، يسري إلى القلب _دون دق أبوابه_ قبل الأذن بكلمات مؤثرة وألفاظ راقية، وبأسلوب بلاغي جزل، وتصوير إبداعي مدهش، في أدوات بليغة قاصدا منها مقاصد دلالية ومعاني بهية، ولذا جاءت صيغ أحاديثه وتراكيبها محكمة البناء، ومنتقاة بأدوات التصوير البلاغي المختلفة، مناسبة لما فيها من عمق في المعاني وثراء في الدلالات وجمال في التركيب.

المنارة للاستشارات

ولذا فإن المتأمل في كلامه الشريف بنظر ثاقب وعقل واع، والمتذوق بحس مرهف، يجد أن أحاديثه الشريفة بلغت من المكانة مبلغ الإعجاز، لأنها تتميز بالبراعة في اختيار المفردات بعفوية تامة لا صنعة فيها، زادت التركيب رونقا وجمالا، ونسجت صورا بلاغية راقية، عهدها العرب في مؤلفاتهم وشاعت بينهم وتداولت على ألسنتهم وفي مدوناتهم، ومن بينها التشبيه الذي كثر في كلامهم، ووجد غزيرا على لسانه الشريف والمدون في الكتب التراثية من صحيح البخاري ومسند أحمد، وعليه فإننا نسعى في هذه الصفحات الموجزة إلى تسجل أبرز مظاهره فيما يلي:

❖ **مظاهر بلاغة تشبيهات البيان النبوي:**

أ. **القيمة البيانية:** بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أمانته على أمته بأسلوب تعبيري راق، سادته المعاني الموحية والتراكيب المميزة ذات خيال واسع قصد تحقيق الدلالة المرجوة لإثارة المتلقي بأعمق المعاني وأدق الأفكار وأحس المشاعر، وجاء هذا في وسائل بيانية متعددة، أبرزها التشبيه بأنواعه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. **تشبيه المعقول بالمحسوس:** ومن ذلك ما روي عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"**ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان: أن يكونَ الله ورسولُه أحبُ إليه ممَّا سواهُما، وأن يُحبَّ المرء لا يُحبُّه إلا لله، وأن يكَرَهَ أن يعودَ في الكُفر كما يَكرهُ أن يُقذفَ في النَّار**"[19]، والتشبيه هنا: (أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)، ووجه الشبه: وجدان الألم وكراهة القلب إياه، وهو من قبيل: تشبيه المعقول بالمحسوس ليتمكن في النفس ويقر في العقل[20].

وورد كذلك هذا النوع من التشبيه في باب ما جاء فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، كما ورد في حديث علي بن زيد بن جدعان القرشي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري: قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما صلاة القصر بنهارٍ ثم قام خطيبا فلم يدَع شيئا يكون إلى قيام الساعة

المنارة للاستشارات

إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وكان فيما قال صلى الله عليه وسلم:"**ألا وإنَّ الغَضَبَ جمرةٌ في قَلبِ ابنِ آدمَ، أما رأيتُم إلى حُمرةِ عَينَيهِ وانتفاخِ أوداجِهِ؟ فمن أحسنَّ بشيء من ذلك فليَلصق بالأرضِ**"[21].

2. **تشبيه المحسوس بالمحسوس:** و"الحسي المدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة"22، مثل ما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ :« أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ** وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»23.

ففي هذا الحديث الشريف جمع النبي صلى الله عليه وسلم معاني كثيرة وفوائد جمة بألفاظ موجزة وموحية ومعان حسنة ومشرفة تحمل في طياتها بركة تجمع خصال الخير وتحث عن التفرغ للأعمال الصالحة في الحياة الدنيا وجميع المواعظ الحميدة لأمته، والتشبيه هنا في قوله:« **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»، أي: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمسك بمنكبي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ليشد انتباهه حتى يحفظ ما يقوله له، من أن يكون في مدة إقامته في الدنيا كأنه غريب، أي: لا يركن إليها وتطمئن نفسه فيها، وهنا شبهه بالغريب، لأن هذا الأخير إذا دخل بلدة غير بلدته لم ينافس أهلها في مجالسهم وعاداتهم، بل يجعل نفسه عابر سبيل، وهنا إشارة إلى الزهد في الدنيا، لأن مثله مثل المسافر الذي لا يحتاج إلى أكثر مما يبلّغه غاية السفر، وهنا نلمس نوع هذا التشبيه: تشبيه المحسوس بالمحسوس.

3. **تشبيه تمثيلي:** هو الذي "يكون وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، وله أثر بليغ في النفس؛ لأنه إذا وقع في صدر الكلام نبّه النفس على تلقي المعنى، وبعثه إليها بوضوح مُعضود بالدليل المقنع"[24]، وهو ما نجده فيما روي عن أبي هريرة أنه

المنارة للاستشارات

سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسلُ فيه كل يومٍ خمسَ مرات، ما تقولون؟ أيبقي ذلك من درنه شيئا ؟، قالوا: لا يُبقي ذلك من درنه شيئا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا**"[25]، فالاستفهام في (أرأيتم) للتقرير، وكأنه يطلب منهم الجواب ليطيل شوقهم ويزيد انتباههم، وأسلوب الاستفهام وسيلة ناجعة في الترغيب، وهو أجدى في فرض الحكم من حقيقة الأمر، وإننا نجد في الحديث تشبيه تمثيلي، فقد شبه الرسول (ص) المؤمن الذي يعد نفسه للصلاة فيصليها، ثم يعد نفسه للصلاة الثانية فيصليها وهكذا حتى يتم فرضه اليومي، بحال المؤمن الذي يمر ببابه نهر فهو يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، وفي الحديث من براعة التركيب وإيحاءات الأسلوب ما يزيد التشبيه براعة وقوة، منها:

أ. تكرار الصلوات يمحو الخطايا كما أن تكرار الاغتسال لا يبقي من الدرن شيئا.

ب. تنكير (نهرا) يوحي بالعظمة والاتساع.

ت. مجيء (باب) مجرورة بالياء مما يوحي بالتصاق النهر بالباب، وذلك لا يكلف جهدا أو زمنا.

ث. الاتيان بالمضارع (يغتسل) يدل على استحضار الصورة مع تجددها في كل وقت، بل مع وجود أي مهلة في العمر، ودل على ذلك ب(كل يوم)

ج. وجاء بلفظ (الخطايا) جمع لا مفرد، وبصيغة منتهى الجموع، ليدل على مقدار فاعلية الصلوات الخمس، فهي تمحو الآثام والخطايا التي تغمر المسلم[26].

4. **التشبيه البليغ:** ما رواه عقبه بن عامر أن رسول الله قال:"**إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله، أفرأيت الحَموَ، قال الحمو الموت**"[27]، و(الحمو الموت): تشبيه بليغ، شبه دخول الحمو على المرأة بالموت، إذا الخلوة بالأحماء مؤدية إلى الهلاك، فيجب أن نحذر من دخول الحمو على النساء كما نحذر الموت، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك لأن العادة جرت بالتساهل فيه[28].

المنارة للاستشارات

5. **التشبيه المرسل:** مثل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : (**بادرُوا بالأعمالِ الصَّالحةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللّيْلِ المُظْلِمِ يُصبِحُ الرَّجلُ مُؤمناً ويُمْسِي كَافراً أو يُمسِي مُؤمِناً ويُصْبحُ كَافراً يَبيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا**)[29]، نجد التشبيه واردا في عبارة فتنا كقطع اللّيل المظلم وهو تشبيه مرسل مفصل، لأنّ أداة التشبيه قد ذكرت فيه وهي الكاف فهو مرسل من هذا الوجه ومفصل كون وجه الشبه الذي هو الظلم قد ذُكر فيه وقد تمّت فيه الأركان. وقد اختار عليه الصلاة والسّلام أن يعبّر في المشبّه به بقطع اللّيل المظلم ليدّل بهذا على مدى تراكم الفتن وشدّتها وخطورتها على المسلمين، فهي فتن تعمي النّاس وتجعلهم كمن يعيشون في ظلام دامس لا يعرفون كيف يتحرّكون ولا أين يذهبون.

ثم إنّ قوله كقطع اللّيل المظلم دون قوله كاللّيل المظلم ليدلّ دلالة واضحة على أنّ هذا الظلام متكاثف ومتراكم بعضه فوق بعض كقطع متراكبة إذا خرج من واحدة سقط في أخرى ، وعلى هذا فالفتن بين يدي الساعة متراكمة ومتراكبة مثلها لا يجلوها قليل من العمل الصالح مثلما لا يجلو قطع اللّيل المظلمة بصيص نور وشعاع ضوء.

وهي بذلك - الفتن - تحتاج إلى كثير من الأعمال الصالحة وفي ذلك إشارة إلى أنّ هذه الأعمال الصالحة في فتن الحياة كالمصابيح في قطع الظلام الحالك... ، ثمّ وقع اختياره على لفظة بادروا ليدلّ على أنّه على العاقل أن يعدّ العدّة قبل وقوع الفتنة لأنّ وقوعها يلهي عن العمل الصالح، ومن هنا فالمبادرة بالعمل الصالح تبدّد الفتنة عند استقبالها مثلما يعدّ الإنسان مصباحه قبل دخول الظلام... وبالتالي فإنّ العمل الصالح هو سلاح المسلم لمواجهة الباطل وأهله[30].

ب. القيمة النحوية: لقد اهتم العرب منذ القديم بالتركيب في الجملة العربية، ولذلك لمعرفة دلالتها المقصودة ومقتضيات الحال الأخرى، و"كان وضع الرسول الكريم

المنارة للاستشارات

في تشبيهاته في إطار خبري أو إنشائي أمر اقتضاه مقام القول وقصد المتكلم من تشبيهه، على أن الخبر كان هو الأكثر استعمالا في الخبر النبوية التشبيهية، ولعل مرد ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرمي من كلامه الشريف إلى إبلاغ الرسالة العظيمة التي كلف بها والإبلاغ في الأصل إخبار غايته بيان تفصيلات هذه الرسالة وأحكامها، على نحو منسجم مع أقدار المخاطبين ومقاماتهم، مما يؤديه الخبر في الأكثر، فهو يتصور بالصور الكثيرة، وتقع فيه الصناعات العجيبة، فهو يساعد على تثبيت المعاني في النفوس وتقريب الأحكام وتيسيرها للعقول"[31].

ومثل ذلك ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:"**إن مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدْلُجوا فانطلقوا على مُهلتهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانَهم، فصبحّهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذّب ما جئت به من الحق**"[32].

إن المتأمل في هذا الحديث الشريف يجد أنه يحمل العديد من التأكيدات، وقد فهمها العرب بالفطرة، ففي قوله:(إني رأيت الجيش بعيني)، يجد: (إن)، ثم تكرار الإسناد في (إني رأيت)، فالرؤية حاصلة من النذير، وهي أيضا خبر عنه، ثم كلمة (العين) مضافة إلى ضمير الرائي المتكلم، لينقطع كل تجوز أو احتمال، و(إني أنا النذير العريان): وهذه الجملة قد صاحبها عدة تأكيدات، لتدخل على المخاطبين الطمأنينة إلى صدق القول، وجدية الدعوة، وهي: بدء التركيب ب(إن) ثم تكرار الإسناد في (النذير)، فقد أسند مرتين، إحداهما كونه خبر عن ضمير الفصل، ثم كونه جملة (أنا النذير) خبرا عن أسم (إن) المسند إليه، ثم وجود ضمير الفصل بين الطرفين: وهو من طرق القصر، والقصر يأتي لتأكيد المعاني ودفع الشك، ثم زيادة في حرص النبي صلى الله

المنارة للاستشارات

عليه وسلم على التبليغ، وبعدها أعقب الصورة القولية: (إني رأيت الجيش بعيني) بصورة مرئية، و(إني أنا النذير العريان) التي هي استعارة تمثيلية لتشبيه النبي حاله وهو ينذر قومه.

ثم شبه من أطاعه واتبع هداه وعملوا بشريعته، فكان لهم حسن المثوبة وعظيم الأجر، بقوم أطاعوا طليعتهم، وصدقوه بما أخبرهم به من مداهمة العدو لهم، وهزمهم نذيره، فسارعوا إلى الهرب ولاذوا بالفرار، يسترهم الليل بظلامه، ويعينهم على السري بهدوء جوه، وغفلة أعين الناس فيه، وهذا تشبيه تمثيلي، كما شبه من عصاه وكذبه، فكان لهم العقاب المر والجزاء الأليم، بقوم استهانوا بهذا النذير، واستخفوا بما قال، فتهاونوا حتى جاء الصباح وهم في مكانهم، ولم يتحركوا نجاة من العدو، ففتك بهم واستأصلهم، وهذا كذلك تشبيه تمثيلي[33].

ح. **القيمة الصوتية:** معلوم أن الإيقاع خاصية تشترك فيها جميع الفنون البلاغية، والتي تحقق منها غاية واحدة هي تأكيد المعنى وترك صوت موسيقى لدى السامع، وبلا شك أن النفوس تطرب لأصوات الحروف عند ائتلافها في الكلمات، وبخاصة إذا وفق قائلها في اختيارها وحسن تركيبها، فهذه الأصوات قادرة على إثارة المشاعر واستجاشة الانفعالات، وبخاصة إذا كان خيال الألفاظ ذا وقع في الآذان، برسمها صورة حسية ومعنوية تضرب في الأبدان وتجري في السمع مجرى الأشخاص من البصر، فكل هذا ينتج عن قول جاد صدر من مشاعر صادقة، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة رواها شفاهة، تحمل في طياتها موسيقى طنانة تطرب الأذن وتريح نفس المتلقي، جاءت على لسانه الشريف بعفوية تامة دون تكلف أو تصنع، ويمكننا توضيح ذلك في نموذج:

✓ **التكرار:** الذي يعدّ من الأساليب التعبيرية المتميزة التي يستعملها الكتاب من أجل كشف ما غمض، أو بالأحرى هو المرآة العاكسة لكشف الشعور عن

المنارة للاستشارات

الذات المبدعة، وقد استعمله الحداثيون كالآلة الموسيقية، يوظفون دلالاته من أجل إثبات المعنى، وترك صوت ذا قيمة يتجسد في نغمات عذبة تقرب هذا المعنى وتجسمه في نفس السامع فترتاح له الأذن عند سماعه، ويكثر التكرار في تشبيهات أحاديث النبي الشريف، منها تكرار لفظة:(مثل)، (لبنة) أكثر من مرة في قوله صلى الله عليه وسلم:"**مَثَلي ومَثلُ الأنبياءِ من قبلي، كمثلِ رجلٍ بَنى بُنيانا فأحسنَه وأجملَه، إلا موضعَ لَبِنَة، من زاوية من زواياه، فجعلَ الناسُ يطوفونَ به ويَعجبونَ له ويقولون: هلاّ وُضعت هذه اللّبنة، فأنا اللّبنةُ، وأنا خاتمُ النّبيين**"[34].

فالنبي عليه الصلاة والسلام استعمل الصورة المجسمة في هذا الحديث الشريف من حيث حسنه وجماله، بأسلوب سهل في إقناع المتلقي بذلك الفراغ الناشئ في تلك الزاوية من الزوايا، نتيجة مقدار لبنة واحدة، وهنا المشبه به واحد والمشبه جماعة، لأنه جعل الأنبياء كرجل واحد، و"لا يتم ما أراد من التشبيه إلا باعتبار الكل، وكذلك الدار لا تتم إلا بإجماع البنيان، فكأنه شبه الأنبياء وما بعثوا به من إرشاد بيت أسست قواعده ورفع بنيانه وبقى منه موضعه به يتم صلاح ذلك البيت، فالمراد هنا النظر إلى الأكمل بالنسبة إلى الشريعة المحمدية مع ما مضى من الشرائع الكاملة"[35]، وبالتالي فالنبي صلى الله عليه وسلم "أراد تقريب حقيقة كونه آخر النبيين إلى عقول المسلمين، وإقناعهم بها، فشبه نفسه بهذه اللبنة التي تسد ثغرة مهمة وحاسمة، تركها الأنبياء من قبله، مستعملا صيغة التشبيه البليغ في خبر ابتدائي (أنا اللبنة) لتنفذ الفكرة إلى قلوبهم حقيقة لا لبس فيها ولا تحتاج لدليل أو توكيد"[36].

وفي الخاتمة نقول: إنّ من بيانه الشريف ما يدلّ على جوامع كلمه وعواليه، فالبراعة والبيان في اختيار الألفاظ كان لصداه أثر قوي على الأمة العربية والإسلامية، وذلك باستعماله لغة راقية جاءت تجسد المعنى وتبرزه في صور محسوسة، وكان التشبيه أبرزها، وعدّ الوسيلة المميزة لإظهار بلاغته الخفية من المعاني والدلالات،

المنارة للاستشارات

وقد وقع في القلب موقع السهم، في أسلوب أدبي راق مليء بالصور والخيال الواسع، وهذا ما يدل على القيمة الفنية التي امتازت بها الألفاظ في تراكيبها وحسن اختيارها الذي اصدر بها وقعا موسيقيا بصوت سكن القلوب قبل وقع الكلمات في الآذان، وهنا حقق الرسول الكريم وظيفة أساسية في ترسيخ أمانته الربانية التي كانت إيمانية وتربوية جاءت بفصاحة وبيان مصدره نظم القرآن ووحي من رب كريم منان، جمعت بين متعة العقل والقلب والروح.

الهوامش:

[1] ينظر: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان، 1928، ط3، ص 279

[2] ينظر: جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير من حديث البشير النذير، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة الحلبوني، دمشق سوريا، دط،دت، ، ج1، ص44.

[3] عبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة، 01.

[4] ينظر: عبد الباري طه سعيد : أثر التشبيه في تصوير المعنى، القاهرة ، 1412ه/1992م ، ط1 ، ص 12- 14.

[5] ينظر: جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير من حديث البشير النذير، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة الحلبوني، دمشق سوريا، دط،دت، ج1، ص312

[6] السيوطي: الجامع الصغير من حديث البشير النذير، ج1، ص44.

[7] ابن الأثير الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق أحمد طاهر الزاوي ومحمود الطناجي، مطبعة مصطفى الباي الحلبي، القاهرة مصر، ط1، 1963م، 4/1.

[8] أحمد بن علي بن حجر العسقلانيت852ه: فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مطبعة مصطفى الباي الحلبي، القاهر مصر، 1959م،4/17.

[9] السيوطي: المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، دار إحياء الكتب العربية، دط، دت، ج1، ص246.

[10] ضياء الدين ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى الباي الحلبي، القاهرة مصر، ج1، ص59، 52.

المنارة للاستشارات

[11] الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص18.17.

[12] الجاحظ: البيان والتبيين، ج2, ص18

[13] ينظر: ضياء الدين ابن الأثير: المثل السائر، ج1، ص59، 52.

[14] طه الراوي: نظرات في اللغة والنحو، المطبعة التجارية، بيروت لبنان، ط1، 1962م، ص20.

[15] ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، تعريب إبراهيم الكوني، دمشق سوريا، 1956م، ص80.

[16] عبد الرحمن بودرع: نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، دار الكتب القطرية، قطر، 2013م، ص99.98

[17] ينظر: أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة، ط1، 1991م، ص274.263.

[18] ينظر هامش: عبد الرحمن بودرع: نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، ص119

[19] ينظر الحديث في: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني ت855هـ: عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، منشورات إدارة الطباعة المنيرية، دط، دت، 146/1. وأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ت256هـ: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ط1، 2002م، ص14.

[20] ينظر: عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث الشريف، ص74.

[21] ينظر: أبي عيسى محمد بن عيسى بن سوره ت297هـ: سنن الترميذي، تحقيق إبراهيم عطوه عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1962م، 484/4، ومسند أحمد، 19/3.

[22] جلال الدين القزويني: الإيضاح، ص219.

[23] صحيح البخاري، 2358/5، وذكره الترميذي في سننه في باب قصر الأمل، 567/4

[24] عبد الرحمن بودرع: نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، ص131.

[25] صحيح البخاري، 197/1.

[26] عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث الشريف، ص80.

[27] ينظر الحديث في: العيني: عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري، 223/20.

[28] عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث الشريف، ص107.

[29] الإمام محي الدين يحي بن شرف النووي (رحمه الله) : من صحيح مسلم بشرح النووي ، المطبعة المصرية بالأزهر ، 1348 هـ/1929م ج2 ، ط1 ، ص 133.

[30] ينظر: عبد الباري طه سعيد: أثر التشبيه في تصوير المعنى، مطبوعات القاهرة، ط1، 1412هـ/1992م، ص24– 25.

[31] فائز طه عمر: بلاغة التشبيه في الحديث النبوي الشريف في صحيح البخاري، مجلة جامعة تكريت، مج20، ع1، ص55.

[32] صحيح البخاري، 183/8.

المنارة للاستشارات

[33] ينظر: عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث الشريف، منشورات شركة مكتبات عكاظ، الرياض السعودية، ط1، 1982م، ص34.35.

[34] البخاري: صحيح البخاري، 130/3، وأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ت261هـ: صحيح مسلم، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار المنهاج، جدة السعودية، دار طوق النجاة، بيروت لبنان، 1791/4.

[35] العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 645/6.

[36] فائز طه عمر: بلاغة التشبيه في الحديث النبوي الشريف في صحيح البخاري، مجلة جامعة تكريت، مج20، ع1، ص52.

المنارة للاستشارات